

البيبا والنبين

للأبي عثمان عمرو بن محمد بن محبوب

« كتب الجاحظ تعلم العقل »

« أولاً، والأدب ثانياً »

ابن العميد

الجاحظ

مصدر بترجمة للجاحظ مستفيضة

بقلم محققه وشارحه

صن السدوي

صاحب جريدة الثمرات

الجزء الاول

الطبعة الاولى —

١٩٢٦ — ١٣٤٥

الجاحظ *

نسبه وكنيته

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الككناني بلولاء . وإنما لقب « الجاحظ »
لجحوظ عينيه أي بروزهما ، وقد يقال له « الحدق » لكبر حدقنيه أيضاً
وكان جده محبوب رجلاً أسود وكان جمالاً لعمرو بن قلع ، وكان هو مولى
للقلمس بن عمرو بن قلع الككناني الفقيمي الليثي

مقامه ومنزاته

ويعتد الجاحظ سيد كتاب العربية بلا منازع ، وشيخ أدباء العرب بلا مدافع ،
وإمام ذوي اللسان والبيان وأهل الفصاحة والكلام وكان من محاسن الدنيا
ومفاخر الاسلام

مولده ومنشاؤه

ولد بالبصرة حوالي سنة ١٥٩ هـ ٧٧٥ م ونشأ ببغداد وأخذ علومه ومعارفه عن
شيوخ البلدين وجلة علمائهما وصفوة أهل الكلام فيهما . وتخصص في مذاهب
الاعتزال على استاذه أبي اسحق ابراهيم بن سيار النظام ، وحدث عن يزيد بن هرون
والسري بن عبدويه وأبي يوسف القاضي والحجاج بن محمد بن حماد بن سلمة . وعنه
روى ابو بكر عبدالله بن داود السجستاني ومحمد بن عبد الله بن أبي الدهباب
وأبو العباس محمد بن يزيد المبرد ويموت بن المزرع ابن أخنه، اعني ابن اخت الجاحظ

* عن الحيوان والبيان والتبيين للجاحظ . وتأويل مختلف الحديث لابن قتيبة . ومروج الذهب
للمسعودي . والاغاني لابي الفرج الاصبهاني . وأمالى السيد المرتضى . واعجاز القرآن للباقلاني .
والمثل والنحل للنهرستاني . والامالى لابي علي القالي . والانساب السعدي . والفرق بين الفرق
لابن قتيبة . والانتصار للخياط . وسرح العيون لابن نباتة المصري . ومعجم الادباء لياقوت .
وفيات الاعيان لابن خلكان . وشرح الصلاح الصفدي على لاهية العجم . وطبقات الاطباء لابن
أبي أصيبعة . وزهر الآداب للحصري . وبغية الوعاة للسيوطي . وثلاث رسائل طببت حديثاً
بالمطبعة السلفية . ومطالعات شتى في كتب الادب والتاريخ

معارفه

أتقن فنونا كثيرة ، ويظهر أنه تعلم الفارسية وأجادها ، وقرأ كتب الفلاسفة من اليونان والفرس والروم والهند ، ونظر في علوم الأوائل ، ولم ينقل كتاب حتى عهده الى العربية في أي علم وفي أي فن الا قرأه وتمثله . وكان كثير الحفظ ، واسع الرواية ، قوي الحجج ، ناصع البرهان . ملأت تصانيفه الآفاق وانتفع بها الخلق ، وعمت فوائدها حتى لقد قيل : مما فضل الله به أمة محمد ﷺ على غيرها من الامم : عمر بن الخطاب بسياسته ، والحسن البصرى بعلمه ، والجاحظ ببيانه

صحبه بابن الزيات

وكان منقطعا الى الوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، منحرفا عن احمد بن أبي دؤاد لما كان بين محمد واحمد من الشنآن . فلما قبض على محمد بن الزيات هرب الجاحظ فقتل له : لم هربت ؟ فقال : خفت ان أكون ثاني اثنين اذها في التنور يشير الى التنور الذي صنعه ابن الزيات وجعل فيه مسامير ليعذب به خصومه فعذب هو فيه حتى مات

الجاحظ وابن أبي دؤاد

ولما أتى بالجاحظ الى احمد بن أبي دؤاد بعد موت ابن الزيات دخل عليه مغلول العنق بسلسلة ، مقيد الرجلين ، في قميص سميل ؛ فلما وقع نظر ابن أبي دؤاد عليه قال : والله ما علمتك الا متناسيا للنعمة ، كغفورا للصنعة ، معدنا للمساوي ، وما قصرت باستصلاحك لك ، ولكن الايام لا تصلح منك لفساد طويتك ، ورداءة دخلتك ، وسوء اختيارك ، وغالب طبعك . فقال الجاحظ خففص عليك ايديك الله ، فوالله لأن يكون لك الامر على خير من أن يكون لي عليك ، ولان اسبيء وتحسن أحسن في الأحدثنة عنك من أن أحسن ونسيء ، ولان تعفو عني في حال قدرتك أجمل بك من الانتقام مني . فقال ابن أبي دؤاد : قبحك الله ، فوالله ما علمتك الا كثير نزويق اللسان ، وقد جعلت بيانك أمام قلبك ثم اضطغنت فيه النفاق والكفر . يا غلام ، صر به الى الحمام وأمط عنه الأذى

فتزع عنه الغل والقييد وأدخل الحمام وحمل اليه تحت من ثياب وطويلة وخف ،

فليس ذلك ثم جاءه فصدره في مجلسه ثم أقبل عليه وقال : هات الآن حديثك يا أبا عثمان

مذهبه في الاعتزال

انفرد الجاحظ بآراء خاصة في علم الكلام ، واختص بمذهب في الاعتزال ، وصار شيخ فرقة من فرق المعتزلة تسمى « الجاحظية » نسبة اليه . ومما تفرد به القول بان المعرفة طباع ، وهي مع ذلك فعل العبد على الحقيقة . وقوله في سائر الافعال انها تنسب الى العباد على انها وقعت منهم طباعا ، وانها وجبت بارادتهم ، وليس بجائز أن يبلغ أحد ولا يعرف الله تعالى . والكفار عنده بين معاند وبين عارف قد استغرقه حبه لمذهبه وعصبيته ، فهو لا يشعر بما عنده من المعرفة بخلافه وتحدث عن نفسه فقال : قلت لأبي يعقوب الخزيمي : من خلق المعاصي ؟ قال : الله . قلت : فمن عذب عليها ؟ قال : الله . قلت : فلم ؟ قال : لا أدري والله

وقد ثارت بينه وبين مخالفيه في الرأي من الملاحدة والمرجئة والرافضة مناظرات عنيفة ، ومحاولات حادة ، تناولوه فيها بكل أنواع الشنع ، ولكن النصر كان من نصيبه ، والظفر في جانبه ؛ ولم تقف هجمات خصومه عليه في حياته بل استمرت واشتدت بعد وفاته . غير أن أنصاره تمكنوا من رد تلك الهجمات ودحض هاتيك الخصومات . فهذا أبو الحسين الخياط روى في كتابه « الانتصار » مهاجمات لابن الراوندي تناول فيها بالطن الجارح عقيدة الجاحظ ، وكيف عقب الخياط على هذه المطاعن والمثالب بردها على صاحبها ابن الراوندي . فمارواه الخياط قوله : ثم قال (يعنى ابن الراوندي) :

وأما الجاحظ فانه يقول « انه محال أن يُعدم الله الاجسام بعد وجودها ، وان كان أوجدتها بعد عدمها » قال : ومتى استحال أن يعدم الجسم بعد وجوده ، استحال أيضاً وجوده بعد عدمه . وهذا كذب على الجاحظ عظيم وذلك أن قول الرجل انما يعرف بحكاية أصحابه عنه أو بكتبه ، فهل وجد هذا القول في كتاب من كتبه ؟ فإن كتب عمرو الجاحظ معروفة مشهورة في أيدي الناس . أو هل حكاه عنه أحد من أصحابه ؟

فإذا كان الرجل ميتاً فكتبه وأصحابه تخبر بخلاف ما قرره به هذا المباحن الكذاب ،
فقد تبين كذبه وبهته وجهله . ومن بعد ، فمن قرأ كتاب عمرو الجاحظ في الرد على
المشبهة ، وكتابه في الاخبار وإثبات النبوة ، وكتابه في نظم القرآن ، علم أن له في
الاسلام غناء عظيماً لم يكن الله عز وجل ليضيعه له

قلت : لعمرى إن القول ببقاء المادة وعدم تلاشيها قد أصبح في عصرنا هداماً
معروفاً يسلم به ويدين بصحة أسسه الكثير من اكابر العلماء وفحولهم في أوروبا وغيرها ،
ولهم على صحته من الادلة والبراهين العلمية المبنية على البحث والاستقراء ما لا سبيل
الى دفعه أو إضعافه ، إلا اذا جاء الزمن من الاكتشافات بما لم يخطر على بال ، فينتصر
المذهب الروحي على المذهب المادي ؟ فإذا كان الجاحظ قد ارتآى هذا الرأي كان
له فضل سبق اليه والقول به منذ احد عشر قرناً

ثم قال صاحب « الانتصار » فيما يرد به على ابن الراوندى : وأما رميك
للجاحظ ببعض الرسول فهو دليل على انك لا تعرف المحب من المبغض ، ولا الولي من
العدو ، لانه لا يعرف المتكلمون أحداً منهم نصر الرسالة واحتج للنبوة ببلغ في ذلك
ما بلغه الجاحظ . ولا يعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه وأنه
حجة لمحمد ﷺ على نبوته غير كتاب الجاحظ . وهذه كتبه في إثبات الرسالة
وكتبه في تصحيح محيي الاخبار مشهورة . وهل يستدل على حب الرسول ﷺ
والايمان به وتصديقه فيما جاء به بشيء أو كدما يستدل به على حب الجاحظ
الرسول وتصديقه إياه ؟

ومما تلبه به خصومه تقريباً الى العامة والحشوة :

قال طبرن قتيبة : ثم نصير الى الجاحظ ، وهو آخر المتكلمين والمعابر على
المتقدمين ، وأحسنهم للحجة استنارة ، وأشدهم تلطفاً للعظيم الصغير حتى يعظم ،
وتصغير العظيم حتى يصغر ، ويبلغ به الافتدار الى أن يعمل الشيء وتقيضه ، ويحتج
بفضل السودان على البيضان ، وتجدد يحتج مرة للعثمانية على الرافضة ، ومرة للزيدية
على العثمانية وأهل السنة . ومرة يفضل علياً رضي الله عنه ومرة يؤخره . ويقول :

قال رسول الله ﷺ ويتبعه قال الجاز ، وقال اسمعيل بن غزوان كذا ، كذا من الفواحش ، وبجل رسول الله ﷺ عن أن يذكر في كتاب ذكر فيه ، فكيف في ورقة أو بعد سطر أو سطرين ؟

ويعمل كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين ، فإذا صار إلى الرد عليهم نجوز في الحجة كأنه إنما أراد تنيبهم على ما لا يعرفون ، وتشكيك الضعفة من المسلمين . ونجده يقصد في كتبه للمضاحيك والعبث يريد بذلك استمالة الاحداث وشراب النبيذ ، ويسهرزيء من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم ، كذكره كبد الحوت ، وقرن الشيطان ، وذكر الحجر الاسود ، وأنه كان أبيض فسوده المشركون وقد كان يجب أن يبيضه المسلمون حين اسلموا . ويذكر الصحيفة التي كان فيها المُنزَلُ في الرضاع تحت سرير عائشة فأكثها الشاة ، وأشياء من أحاديث أهل الكتاب في تنادم الديك والغراب ، ودفن الهدد في رأسه ، وتسبيح الضفدع ، وطوق الحمامة وأشباه هذا . وهو مع هذا من أكذب الأئمة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لباطل وروى عن أبي عمرو أنه جرى ذكر الجاحظ في مجلس أبي العباس احمد بن يحيى فقال : امسكوا عن ذكر الجاحظ فانه غير ثقة

وقال الازهرى : كان الجاحظ روى عن الثقات ما ليس في كلامهم ، وكان قد أتى بسطة في لسانه ، وبيانا في خطابه ، ومجالا واسعا في فنونه ، غير أن أهل العلم والمعرفة ذموه ، وعن الصدق دفعوه

وقال البديع الهمداني في المقامة الجاحظية :

إن الجاحظ في أحد شقي البلاغة يقطف ، وفي الآخر يقف ، والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره ، ولم يُزر كلامه بشعره ، فهل ترون للجاحظ شعراً رائقاً ؟ قلنا : لا . قال : فلهوا إلى كلامه : فهو بعيد الاشارات ، قريب العبارات ، قليل الاستعارات ، منقاد لعريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله ، فهل سمعتم له بكلمة غير مسموعة ، أو لفظة غير مصنوعة ؟

وقال المسعودي : وزعم الجاحظ أن نهر مكران الذي هو نهر السند من النيل ، ويستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه ، فلست أدري كيف وقع له هذا

الدليل ؛ وذكر ذلك في كتابه « الامصار » وهو كتاب في نهاية الغنائة ، لأن الرجل لم يسلك البحار ، ولا أكثر الاسفار ؛ ولا تعرف المسالك والاقطار ، وإنما هو حاطب ليل ينقل من كتب الوراقين

قلت : ليس المسعودي من أولئك الذين اشرنا الى أنهم إنما يقصدون بثلب الجاحظ القربى الى العمامة والحشوة ، ولكنه عالم ينظر فيما هو مخصص به من فروع المعلوم والمعروف . ولا شك في أن الحق في هذه المسئلة في جانبه . وقد أذكرتني طعنة المسعودي في الجاحظ طعنة مثلها للجاحظ في الخليل بن احمد .

رأي الجاحظ في الخليل

قال الجاحظ : إن الخليل بن احمد من أجل إحسانه في النحو والعروض ، وضع كتابا في الايقاع وتراكيب الاصوات ، وهو لم يعالج ونراً قط ، ولا مس بيده قضيباً قط ، ولا كثرت مشاهدته للمغنين . وكتب كتاباً في الكلام ولو جهد كل بليغ في الارض أن يتعمد ذلك الخطأ والتعميد لما وقع له ذلك ، ولو ان مروراً استفرغ قوى مرته في الهديان لما تهياً له مثل ذلك منه ، ولا يتأني ذلك لأحد إلا بخذلان من الله تعالى

قلت : وهذا من طريق الاتفاقات ، ولعل الله قيض المسعودي ليقول في الجاحظ ما قال الجاحظ في الخليل بن أحمد « والجروح قصاص »

ومن آراء العارفين فيه :

قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد : ما رأيت أحرص على العلم من ثلاثة : الجاحظ ، والفتح بن خاقان ، واسماعيل بن اسحق القاضي . فأما الجاحظ فإنه كان إذا وقع بيده كتاب قرأه من أوله الى آخره ، أي كتاب كان . . . الخ
وكتب الفتح بن خاقان إلى الجاحظ كتاباً يقول في فصل منه :

ان أمير المؤمنين يمد بك ويهش عند ذكرك . ولولا عظمتك في نفسه ، لملك ومعرفتك ، لحال بينك وبين بعدك عن مجلسه ، ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما أنت مشغول به ، ومتوفر عليه . ولقد كان ألقى إلي من هذا عنوانه ، فزدتك في نفسه زيادة

كف بها عن تجشيمك . فأعرف لي هذه الحال ، واعتقد هذه المنة على كتاب « الرد على النصارى » وافرغ منه وعجل به إليّ ، وكن ممن جدابه على نفسه ، وتعال مشاهرتك . قد استطلقته لما مضى ، واستسلفت لك لسنة كاملة مستقبلة ، وهذا مما لم نحتكم به نفسك . وقد قرأت رسالتك في « بصيرة غنام » ولولا اني أزيد في مخيلتك لعرفتكم ما يمتريني عند قراءتها والسلام

وكان الرئيس ابو الفضل بن العميد من المعجبين بالجاحظ ، المتوفرين على كتبه ومصنفاته ، المعترفين من بحار علومه وآدابه ، الذاهبين مذهبه في أسلوبه وكتابه ، حتى لقد كان يلقب أحيانا « بالجاحظ الثاني » قال أبو القاسم السيرافي : حضرنا مجلس الاستاذ أبي الفضل بن العميد الوزير فجرى ذكر الجاحظ ففض بعض الحاضرين منه وأزرى به ، وسكت الوزير عنه ، فلما خرج الرجل قلت له : سكت أيها الاستاذ عن هذا الرجل في قوله ، مع عادتك في الرد على أمثاله ؟ فقال : لم أجد في مقابلته أبلغ من تركه على جهله ، ولو واقفته وبينت له لنظر في كتبه وصار بذلك إنسانا يا أبا القاسم ، فكُتِبَ الجاحظ تعلم العقل أولا ، والأدب ثانيا ، ولم استصلحه لذلك

وقال القاضي ابن خلدكان : الجاحظ صاحب التصانيف في كل فن ، وله مقالة في أصول الدين . ومن أحسن تصانيفه وأمتعها كتاب الحيوان ، فلقد جمع فيه كل غريبة ، وكذلك « البيان والتبيين » وهي كثيرة جدا . وكان مع فضائله مشوه الخلق شيء من أخباره ونوادره

والجاحظ أخبار شائقة ، ونوادر فائقة ، وأحاديث رائقة ، وكان مع جده وجلالة مقامه ، وسمو منزلته ، ومع مواقفه المشهورة في الجدل والناظر ، ومع مجالدته خصومه بقوة لسنه ، ومتانة بيانه ، كان مع هذا كله ميالا إلى الملاح والطائف ، والنسكت والطرائف والتندر والعبث ، والسخرية والهزء ، لا يبالي ان يدون النسكتة وأن يرويه ولو كان فيها ما يتناول سمته ، ويس جلاله ، ويأخذ من حلي وقاره . فمن ذلك ما حدث به عن نفسه فقال :

« ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده فلما رأني استبشع منظري ، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفي ، فخرجت من عنده فلقيت محمد بن ابرهيم وهو يريد الانصراف

الى مدينة السلام فعرض على الخروج معه والأخذ في حرقته ، وكنا بسر من رأى ،
فركبنا في الحراقة فلما انتهينا الى قم نهر انقطول نصب ستارة وأمر بالفناء ، فاندفعت
عوادة فغنت :

كل يوم قطيعةٌ وعتابٌ ينقضي دهرنا ونحن غضاب
ليت شعري أنا خصصت بهذا دون ذا الخلق أم كذا الأحياب ؟
وسكنت ، فأمر الطنبورية فغنت :
وأرحمتنا للعاشقيننا ما إن أرى لهم معيننا
كم يُهجرون ويُصرمو ن ويقطعون فيصبرونا؟

فقال لها العوادة : فيصنعون ماذا ؟ قالت : هكذا يصنعون . وضربت بيدها
الى الستارة فتهتكها وبرزت كأنها فلقة قر فألقت نفسها في الماء ، وعلى رأس محمد
غلام يضاهبها في الجبال وبيده مذبة فأنى الموضع ونظر اليها وهي تمر بين الماء وأنشد :

أنت التي غرقتني بعد القضا لو تعلمينا

وألقى نفسه في أثرها ، فأدار الملاح الحراقة فاذا بهما معتنقان ، ثم غاص فلم يُريا .
فاستمع محمد ذلك وهاله أمرهما ثم قال : يا عمرو ، اتحدثني حديثاً يسليني عن فعل
هذين وإلا ألقيتك بهما . قال : فحضرني حديث يزيد بن عبد الملك وقد قعد المظالم
يوماً وعرضت عليه القصص فمرت به قصة فيها : إن رأى أمير المؤمنين أن يخرج
إلى جاريته فلانة حتى تغيبني ثلاثة أصوات فعل . فاغتاض يزيد من ذلك ، وأمر من
يخرج اليه ويأتيه برأسه ، ثم اتبع الرسول رسولا آخر يأمره أن يدخل اليه الرجل
فأدخله فلما وقف بين يديه قال له : ما الذي حملك على ما صنعت ؟ قال : الثقة بملكك ،
والاتكال على عفوك . فأمره بالجلوس حتى لم يبق أحد من بني أمية إلا خرج ، ثم
أمر فأخرجت الجارية ومعها عودها ، فقال لها الفتى : غني :

أفطم مهـلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرعى فأجمل

فغنته . فقال له يزيد : قل . فقال : غني :

تألق البرق نجدياً فقلت له يأيها البرق إني عنك مشغول

فغنته . فقال له يزيد : قل . فقال : يامولاي ، تأمر لي برطل شراب : فأمر له

به ، فما استتم شربه حتى وثب وصعد على أعلى قبة ليزيد فرمى نفسه على دماغه فمات .
فقال يزيد : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أترأه الأحمق الجاهل ظن أنني أخرج إليه
جاريته وأردها إلى ملكي ؟ يا غلمان ، خذوها بيدها واحملوها إلى أهله ، إن كان له
أهل ، وإلا فيبيعوها وتصدقوا عنه بثمانها . فانطلقوا بها إلى أهله ، فلما توسطت الدار
نظرت إلى حفيرة في وسط دار يزيد قد أعدت للمطر فجدبت نفسها من أيديهم وأنشدت :

من مات عشقاً فليمت هكذا لاخير في عشق بلا موت

وألتت نفسها في الحفيرة على دماغها فماتت . فسرى عن محمد وأجزل صلي
وقال : أتيت منزل صديق لي فطرقته الباب فخرجت إلى جارية سنديّة فقلت :
قولي لسيدك ، الجاحظ بالباب . فقالت : أقول ، الجاحد بالباب ؟ على لغتها . فقلت :
لا ، قولي : الحدقي بالباب . فقالت : أقول ، الحلقي ؟ فقلت لا تقولي شيئاً . ورجعت
وقال مرة : ما أخجلني أحد مثل امرأتين ، رأيت إحدهما في العسكر ، وكانت
طويلة القامة ، وكنت على طعام ، فأردت أن أمارحها فقلت : إنزلي كلي معنا . فقالت :
إصعد أنت حتى ترى الدنيا وأما الأخرى فانها أنتي وأنا على باب داري فقالت :
لي اليك حاجة وأريد أن تمشي معي . فقامت معها إلى أن أتت بي إلى صائغ يهودي
وقالت له : مثل هذا . وانصرفت : فسألت الصائغ عن قولها فقال : انها أتت إلى
بنص وأمرتني أن أنقش لها عليه صورة شيطان ، فقلت لها : ياسق ما رأيت للشيطان ؟
فأتت بك وقالت ما سمعت

وقال : دخلت ديوان المكاتبات ببغداد ، فرأيت قوماً قد وصلوا ثيابهم ، ووصفوا
عمائمهم ، ووشوا طرؤهم ، ثم اختبرتهم فوجدتهم كما قال الله تعالى . فأما الزيد فيذهب
جفاء ، وظواهر نظيفة ، وبواطن سخيفة ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم
مما يكسبون

وقال : وقفت يوماً على قاض فأردت الالوع به ، فقلت لمن حوله : إنه رجل صالح
لا يحب الشهرة . فتفرقوا عنه . فنظر إلي وقال : حسبك الله ؟
وقال : قلت يوماً لعبيد السكلابي : أيسرك أن تكون هجيناً وراك ألف دينار ؟
فقال : لا أحب اللوم بشيء . قلت : فإن أمير المؤمنين ابن أمة ؟ فقال : أخزى الله

من أطاعه . قلت : نبيا الله اسماعيل ومحمد ابني أمة ؟ فقال : لا يقول هذا إلا قدرني .
 قلت : وما القدري ؟ قال : لا أدري ، إلا إنه رجل سوء
 وقال : أتاني بعض النقلة فقال : سمعت ان لك ألف جواب مسكت ، فعلمني
 منها . فقلت : نعم . فقال : إذا قال لي شخص : يازوج القحبة ، يانقيل الروح ، أي
 شيء أقول له ؟ قلت : قل له ، صدقت
 وسأله بعضهم كتاباً الى بعض أصحابه بالوصية به ، فكتب له رقعة وختمها ،
 فلما خرج الرجل من عنده فضاها فاذا فيها : كتابي اليك مع من لا أعرفه
 ولا أوجب حقه ، فان قضيت حاجته لم أحمدك ، وإن رددته لم أذمك . فرجع الرجل
 اليه فقال الجاحظ : كأنك فضضت الورقة ؟ قال : نعم . قال : لا يضيرك ما فيها فانه
 علامة لي إذا أردت العناية بشخص . فقال الرجل : قطع الله يديك ورجليك ولعنك ؟
 فقال الجاحظ : ما هذا ؟ قال : علامة لي اذا أردت أن أشكر شخصاً
 وقال : نزلت على صديق لي فلم آكل عنده لحماً ، ففرّضت له فقال : اني لأأكثر
 من اللحم منذ سمعت الحديث : ان الله يكره البيت اللحم . فقلت : يا أخي ، انما
 أراد البيت الذي تؤكل فيه لحوم الناس بالغبية ؟ فلم يؤخر حضور اللحم من ذلك اليوم .
 قلت : وهذه من معابث الجاحظ

نخب من رسائله الخاصة

كتب الى محمد بن عبد الملك الزيات ، وكان قد تنكر له :
 اعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرّاف الهوى ، وصرف ما أعارك
 من القوة إلى حب الانصاف ، ورجح في قلبك إيثار الاناة ، فقد خفت - ايدك الله - أن
 اكون عندك من المنسويين الى نزق السفهاء ، ومجانبة سبل الحكماء ،
 وبعد ، فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وإن امرأ أمسى وأصبح سالماً من الناس إلا ما جنى لسعيد
 وقال الآخر

ومن دعا الناس الى ذمه ذموه بالحق وبالباطل

فان كنت اجترأت عليك - أصلحك الله - فلم اجتريء الا لان دوام تغافلِكَ
عنى شبيه بالاهمال الذى يورث الاغفال ، والعمو المتتابع يؤمن من المكافأة . ولذلك
قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : عمرٌ كان خيراً لي منك ، أُرهبني
فاتقاني ، وأعطاني فاغتناني . فان كنت لاتهب عقابي - ايدك الله - لخدمة سلفت
لى عندك ، فهبه لايديك عندي ، فان النعمة تشفع في النقمة ، وإلا تفعل ذلك لذلك
فعد إلى حسن العادة ، والا فافعل ذلك لحسن الاحدوثه ؛ والافات ما انت أهله من
العفو ، دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة ؛ فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد ،
وتنجاني عن عقاب المصّر ، حتى اذا صرت الى من هفوته ذكر ، وذنبه نسيان ؛
ومن لا يعرف الشكر الا لك ، والانعام الا منك ، هجمت عليه بالعقوبة

واعلم - ايدك الله - أن شين غضبك على كزبن صفحك عنى ، وأن موت
ذكرى مع انقطاع سببى منك كحياة ذكرى مع اتصال سببى بك . واعلم أن لك
فطنة عليهم ، وغفلة كريم ، والسلام
وكتب الى احمد بن أبي دواد يستعطفه فقال :

ليس عندي اعزك الله سبب ولا أقدر على شفيح ، الا ما طبعك الله عليه من
الكرم والرحمة ، والتأميل الذى لا يكون إلا من نتاج حسن الظن واثبات الفضل
بجمال المأمول ، وأرجو أن اكون من العتقاء الشاكرين ، فنكون خير مُعتب ، وأكون
افضل شاكر ، ولعل الله أن يجعل هذا الامر سبباً لهذا الانعام ، وهذا الانعام سبباً
للاقتطاع اليك ، والسكون تحت أجنحتكم ، فيكون لا أعظم بركة ، ولا انمى بقية من
ذنب أصبحت فيه ، وبمثلك - جعلت فداك - عاد الذنب وسيلة ، والسيدة حسنة . ومثلك
من اتقلب به الشر خيراً ، والفُرم غُماً

من عاقب فقد أخذ حظه ، وانما الاجر في الآخرة وطيب الذكر في الدنيا ،
على قدر الاحتمال وتجرع المرائر . وأرجو أن لا أضيع واهلك فيما بين عقلاك
وكرمك . وما اكثر من يعفو عن صفر ذنبه ، وعظم حقه ، وإنما الفضل والثناء العفو
عن عظيم الجرم ، ضعيف الحرمة . وإن كان العفو العظيم مستطرفاً من غيركم فهو
تلاذ فيكم ، حتى ربما دعا ذلك كثيراً من الناس الى مخالفة أمركم ، فلا أنتم عن

ذلك تنكّلون ، ولا على سالف إحصانكم تندمون . وما مثلكم إلا كمثل عيسى ابن مريم حين كان لا يمر ببلدٍ من بني إسرائيل إلا أسمعوه شراً وأسمعهم خيراً ، فقال له شتمون الصفا : ما رأيت كاليوم ؛ كلما أسمعوك شراً أسمعتمهم خيراً ؛ فقال : كل امرئٍ ينفق مما عنده . وليس في أوعيتكم إلا الخير ، ولا في أوعيتكم إلا الرحمة ، وكل إناء بالذى فيه ينضح

وكتب يقول :

زينك الله بالتقوى ، وكفأك ما أهمك من الآخرة والاولى . من عاقب أبقاك الله تعالى على الصغيرة عقوبة الكبيرة ، وعلى الهفوة عقوبة الاصرار ، فقد تناهى في الظلم . ومن لم يفرق بين الاسافل والاعالى ، والاداني والاقاصي ، فقد قصر . والله لقد كنت أكره سرف الرضا مخافة أن يؤدي الى سرف الهوى ، فما ظنك بسرف الغيظ وغلبة الغضب من طياش عجول فحاش ، ومعه من الخرق بقدر قطه من التهاب المرّة الحمراء ؛ وأنت روح كما أنت جسم ، وكذلك جنسك ونوعك ، الا ان التأثير في الرقاق أسرع ، وضده في الغلاظ الجفاة أكل ، ولذلك اشدت جزعي عليك من سلطان الغيظ وغلبته ؛ فاذا أردت أن تعرف مقدار الذنب اليك من مقدار عقابك عليه ، فانظر في علته ، وفي سبب اخراجه من معدنه الذي منه نجم ، وعشه الذي منه درج ، والى جهة صاحبه في التسرع والثبات ، والى حلمه عند التعريض ، وفطنته عند التوبة : فكل ذنب كان سببه ضيق صدر من جهة الفيض في المقادير ، أو من طريق الأنفة وغلبة طباع الحمية ، من جهة الجفوة أو من جهة استحقاقه فيما زين له عمله انه مقصر به في حقه ، مؤخر عن رتبته ، أو كان مبلغاً عنه مكذوباً عليه ، أو كان ذلك جائزاً فيه غير ممتنع منه . فاذا كانت ذنوبه من هذا الشكل فليس يقف عليها كريمة ، ولا ينظر فيها حلیم . ولست أسميه بكثرة معرفه كريماً ، حتى يكون عقله غامراً لعلمه ، وعلمه غالباً على طباعه ، كما لأسميه بكف العقاب حلماً ، حتى يكون عارفاً بمقدار ما أخذ وترك ؛ ومتى وجدت الذنب بعد ذلك لاسبب له الا البغض المحض ، والنفاق الغالب فلو لم ترض لصاحبه بمقاب دون قعر جهنم لعذر ككثير من العقلاء ، ولصوب رأيك عالم من الاشراف . والأناة أقرب من الحمد وأبعد من الذم ، وأناى من خوف العجلة .

وقد قال الاول : عليك بالاناة فانك على إيقاع ماتوقعه أقدر منك على رد ماقد أوقعته . وليس يصارع الغضب أيام شبابه شيء إلا صرعه ، ولا ينازعه قبل انتهائه [منازع] الا قهره ، وإنما يحتمل له قبل هيجه ، فتمن يمكن واستفحل ، وأذكى ناره واشتمل ، ثم لاقى من صاحبه قدرة ، ومن أعوانه سمعاً وطاعة ، فلو استبطنته بالنوراة ، وأوجرتة بالانجيل ، ولدننه بالزبور ، وأفرغت على رأسه القرآن إفرانغاً ، وأتته بآدم شفيماً ، لما قصر دون أقصى قوته . ولن يُسكن غضب العبد إلا ذكره غضب الرب ، فلا تقف - حفظك الله - بعد مضيك في عتابي التماساً للعفو عني ، ولا تقصر عن إفراطك من طريق الرحمة بي ، ولكن قف وقفة من يتهم الغضب على عقله ، والشيطان على دينه ، ويعلم أن للكرم أعداء ، ويمسك امسالك من لا يبرىء نفسه من الهوى ، ولا يبرىء الهوى من الخطأ ، ولا تنكر لنفسك أن تزل ، ولعلك أن يهفو . فقد زل آدم عليه السلام وقد خلقه بيده . ولست أسألك الا ريثما تسكن نفسك ، ويرتد اليك ذهنك ، وترى الحلم وما يجلب من السلامة وطيب الاحدوتة ؛ والله يعلم وكفى به علماً

لقد أردت أن أفديك بنفسي في مكاتباتي ، وكنت عند نفسي في عداد الموتى وفي حيز الهلكى ، فرأيت ان من الخيانة لك ، ومن اللؤم في معاملتك أن أفديك بنفس ميتة ، وأن أريك اني قد جعلت لك أنفك ، ذخر والذخر معدوم . وأنا أقول كما قال أخو تقيف : مودة الأخ التالد وإن أخلق خيراً من مودة الأخ الطارف . وإن ظهرت مساعدته وراقت جدته .

سلمك الله وسلم عليك ، وكان لك ومعك

وكتب الى قلب المغربى يقول :

والله يا قلب لولا أن كبدى في هواك مقروحة ، وروحي بك مجروحة ، لساجلتلك هذه القطيعة ، ومأددتك جبل المصارمة ، وأرجو أن الله تعالى يدبيل صبرى من جفائك ، فيردك الى مودتى وأنف القلى راغم ، فقد طال العهد بالاجتماع حتى كدنا نتناكر عند الالتقاء

نبد من شعره

وشعر الجاحظ وإن كان دون طبقة في البلاغة، ودون منزلته في الفصاحة، إلا أننا لا يمكننا أن نترك هذه الترجمة دون إثبات ما عثرنا عليه منه
 روى يموت بن المزرع هذه الأبيات للجاحظ يهجو بها الجاز:
 نسب الجاز مقصور إليه منهاه
 تنتهي الأحساب بالناس ولا يعدو قفاه
 يتحاجي من أبو الجاز فيه كتاباه
 ليس يدري من أبو الجاز إلا من يراه
 وروى له أبو العيناء هذه الأبيات في الخضاب

زرت فتاة من بني هلال فاستعجلت إلي بالسؤال :
 مالي أراك قاني السبيل كأنما ككرعت في جريال
 ما يبتغي مثلك من أمثالي ؟ تتح قدامي ومن حيالي

وقال

يطيب العيش ان تلتقى حكيما غذاه العلم والفهم المصيب
 فيكشف عنك حيرة كل جهل وفضل العلم يعرفه اللبيب
 سقام الحرص ليس له شفاء وداء الجهل ليس له طيب

وقال

ان حال لون الرأس عن حاله ففي خضاب المرء مُستمع
 (هَبَّ) أن من شاب له حيلة فما الذي تُحَيُّ له الاضلع ؟
 وروى له أبو الحسن البرمكي

وكان لنا أصدقاء مضوا تفاتوا جميعاً وما خلدوا
 تساقوا جميعاً كؤوس المنون فبات الصديق ومات العدو
 وله من أبيات في المدح

بدا حين أثرى باخوانه ففلل عنهم شبابة العدم
 وذكره الخزم صرف الزمان فبادر قبل انتقال النعم
 فقى خصه الله بالمكرمات ففازج منه الحيا بالكرم

مرضه وما قيل في سببه وما أحاط به

قال ابن أبي أصيبعة : نقلت من خط المختار بن الحسن بن بطلان ان أبا عثمان الجاحظ ويوحنا بن ماسويه : اجتمعما بغالب ظني على مائدة اسماعيل بن بلبل الوزير (قلت : الأقرب الى الصواب مارواه جمال الدين بن نباته المصري في شرحه على رسالة ابن زيدون من أن اجتماعهما كان على مائدة احمد بن أبي دواد) وكان في جملة ما قدم مضيرة بعد سمك ، فامتنع يوحنا من الجمع بينهما ، فقال له ابو عثمان أيها الشيخ ، لا يخلو أن يكون السمك من طبع اللبن أو مضاد له ، فان كان أحدهما ضد الآخر فهو دواء له ، وان كانا من طبع واحد فلنحسب أنا قد أكلنا من أحدهما الى ان اكتفينا ؟ فقال يوحنا : والله مالي خبرة بالكلام ، ولكن كل يا أبا عثمان وانظر ما يكون في غد . فأكل ابو عثمان نصرة لدعواه ففلج في ليلته ، فقال : هذه والله نتيجة القياس الحال .

وقال ابو العباس محمد بن يزيد المبرد : عدت الجاحظ فسمعتة يقول : أنا من جانبي الايسر مفلوج فلو قرض بالمقاريض ما عدت ؟ ومن جانبي الايمن منقرس فلو صرني الذباب لاملت ، وبي حصاة لا ينسرح لي البول معها ، وأشد ما على ست وتسعون . وقال يموت بن المزرع (وهو ابن أخت الجاحظ) وجه المتوكل في السنة التي قتل فيها (٢٤٧) ان يحمل اليه الجاحظ من البصرة - وقد - أنه الفتح بن خاقان ذلك - فوجده لافضل فيه ، فقال لمن أراد حمله : ما يصنع بامرئ ، ليس بطائل ، ذي شق مائل ، ولعاب سائل ، وفرج بائل ، وعقل زائل ، ولون حائل ؟

وقال ابو معاذ عبدالله الخولي المتطبب : دخلنا يوما بسر من رأى على عمرو بن بحر الجاحظ نعوده وقد فليج ، فلما أخذنا مجالسنا أتى رسول المتوكل فيه فقال : وما يصنع أمير المؤمنين بشق مائل ، ولعاب سائل ؟ ثم أقبل علينا فقال : ما تقولون في رجل له شقان : أحدهما لو غرز بالسال ما احس ، والشق الآخر يمر به الذباب فيفوت ، واكثر ما اشكوه الثمانون ؟ ثم أنشدنا أبيانا من قصيدة عوف بن محم الخزاعي - قال ابو معاذ : وكان سبب هذه القصيدة ان عوفاً دخل على عبد الله

ابن طاهر ، فسلم عليه عبدالله فلم يسمع ، فأعلم بذلك ، فزعموا أنه ارتجل هذه القصيدة ارتجالاً فأنشده :

يا ابن الذي دَانَ له المشرقان	طرا وقد دَانَ له المغربان
إِن الثمانين وبُعَّتْهَا	قد أحوجت معي إلى تَرْجَمَان
وبدلتنِي بالشَّطَاطِ أَنَحِنَا	وكنْتُ كالصَّعْدَةِ نَحْتِ السَّنَانِ
وبدلتنِي من زَمَاعِ الْفَتَى	وهنِي همَّ الجبان الهدان
وقاربت مني خُطَا لم تكن	مُقَارِبَاتٍ وثنت من عنان
وَأَنْشَأْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْوَرَى	عَنَانَةٌ من غير نسج العنان
ولم تدع في لمستمعٍ	إلا لسانِي ، وبِحسبي لسان
أدعو به الله وأثنى به	على الامير المصعبي الهجان
فقرَّباني بأبي انما	من وطئ قبل اصفرار البنان
وقبل منعاى الى نسوة	أوطانها حرَّان والرقتان

وقال بعض البرامكة : كنت تقلدت السند فأقت بها ماشاء الله ثم اتصل بي اني صرفت عنها ، وكنت قد كسبت بها ثلاثين الف دينار فخشيت ان يفجأني الصارف فيسمع بمكان المال فيطمع فيه ، فصغته عشرة آلاف اهليلجة ، ولم يلبث الصارف ان أتى فركبت البحر والمحارت الى البصرة ، فخبرت أن الجاحظ بها ، وانه عليل بالغالج ، فأحببت ان أراه قبل وفاته فصرت اليه فافضيت الى باب دار لطيف فقرعته فخرجت الى خادم صفراء فقالت : من انت ؟ فقلت : رجل غريب واحب أن أسر بالنظر الى الشيخ . فبلغته الخادم ماقلت ، فسمعه يقول : قولى له : وما تصنع بشق مائل ، ولعاب سائل ، ولون حائل : فقلت للجارية : لا بد من الوصول اليه . فلما بلغته قال : هذا رجل قد احتاز بالبصرة ومعهم بعثني فقال أحب أن أراه قبل موته فاقول قد رأيت الجاحظ . ثم أذن لي فدخلت وسلمت عليه فرد رداً جميلاً وقال : من تكون أعزك الله ؟ فانتسبت له فقال : رحم الله تعالى أسلافك وآباءك السحراء الاجواد ، فلقد كانت ازمانهم رياض الازمنة ، ولقد الحبر بهم خلق كثير ، فسقيا لهم ورعياً . فدعوت له وقلت : أنا أسالك ان تشدني شيئاً من شعرك ؟ فأنشدي :

لئن قدمت قبلي رجال فطالما مشيت على رِسلي فكنت المقدما
ولكن هذا الدهر تأتي صروفه فغيرم منقوضا وتنقض مبرماً
ثم نهضت فلما قاربت الدهليز قال : يا قتي ، أرايت مفلوجا ينفعه الإهليلج
قلت : لا . قال : فان الإهليلج الذي معك ينفعني ، فابعث لي منه . قلت : نعم .
وخرجت متعجبا من وقوفه على خبري مع كتمانى له ، وبعثت اليه مائة أهليلجة
وقال ابو طاهر : صرت الى الجاحظ ومعى جماعة ، وقد أسن واعتل في آخر
عمره ، وهو في منظره له وعنده ابن خاقان جاره ، فقرأنا الباب فلم يفتح لنا وأشرف
من المنظره وقال : الا إني قد حوقلت ، وحملت رميح أبي سعد ، وسقت الغنم (١) ،
فما تصنعون بي ؟ سلموا سلام الوداع . فسلمنا وانصرفنا

وشكا يوماً لطيبه علته فقال : قد اصطلحت الاضداد على جسدي ، إن أكلت
بارداً أخذ برجلي ، وإن أكلت حاراً أخذ برأسي
وما زال في علته هذه الى أن وقعت عليه مجلدات العلم فمات رحمه الله
في سنة ٢٥٥ هـ ٨٦٨ م

مؤلفاته

ثبتت هنا ما أمكن العثور عليه من أسماء مؤلفاته

مجموعة رسائل تحوى :	كتاب الحيوان
رسالة الحاسد والمحسود	» البيان والتبيين
» في مناقب الترك وعامة جنس الخلافة	» البخلاء
» » فخر السودان على البيضان	» سلوة الحريف في مناظرة الربيع
» » الترييع والتدوير	والخريف

(١) حوقلت : ا كثرت من قول لا حول ولا قوة الا بالله ، لتتابع الامراض .
وقوله : رميح أبي سعد : هو رجل من العرب أسن فاستعان بالعصا ، وهو أول من
فعل ذلك فقليل لكل من شاخ : أخذ رميح أبي سعد . وقوله سقت الغنم : كناية
عن الهرم ، لان سائق الغنم يطأطىء من رأسه

كتاب فرق ما بين هاشم وعبد شمس	رسالة في تفضيل النطق على الصمت
» فرق ما بين الجن والانس	» » مدح التجار وذم عمل السلطان
» فرق ما بين الملائكة والجن	» » العشق والنساء
» الأوفق والرياضات	» » الوكلاء
» الرسائل الهاشميات	» » استنجاز الوعد
» خلق القرآن	» » بيان مذاهب الشيعة
» الرد على المشبهة	» » طبقات المغنين
» أصول الفتيا والاحكام	أسماء ما ذكر منها في كتاب الحيوان
» الاحتجاج لنظم القرآن	كتاب حيل اللصوص
» معارضة الزيدية	» غش الصناعات
» الوعد والوعيد	» الملح والطرف
» النصراني واليهودي	» احتجاج البخلاء (ويظهر انه
» الجوابات	السابق ذكره)
» المسائل	كتاب الصرحاء والهجناء
» أصحاب الالهام	» مفاخرة السودان والحران
» الحججة في تثبيت النبوة	» الزرع والنخل والزيتون والاعناب
» الاخبار	» أقسام فضول الصناعات ومراتب
» بصيرة غنام المرتد	التجارات
» الرد على الجهمية	» فضل ما بين الرجال والنساء
» فرق ما بين النبي والمتنبي	» القحطانية والعدنانية
» العباسية	» العرب والموالي
رسالة في مفاخرة المسك والرماد (١)	» العرب والعجم
ثلاث رسائل هي :	» الاصنام
رسالة في الرد على النصارى	» المعادن

(١) أشار إليها الصلاح الصفدي في شرحه على لامية العجم وقال انها رسالة بديمة

كتاب أخلاق الفتيان وفضائل أهل البطالة

مانسب الى الجاحظ

« التاج في أخلاق الملوك . نسبه اليه

احمد زكي باشا

« تنبيه الملوك والمكاييد . أشار زكي

باشا الي انه مما نسب اليه

« المحاسن والاضداد

رسالة في ذم أخلاق الكتاب

« « القيان

عن كتاب الانتصار للخياط بعد

حذف المسكر

كتاب أفعال الطبائع

« فضيلة المعزلة

عن كتاب التاج

هذا ما أعجل الوقت به من استخلاص ترجمة الجاحظ عن شتى الكتب

ومختلف الاسفار مما لم يسبقنا اليه سابق والله الحمد والمنة ما

سِنِ السَّنُونِي

١٧ ربيع الثاني سنة ١٣٤٥

١٢٤ أكتوبر سنة ١٩٢٦

القاهرة في يوم الاحد

